صوت من الماضي

أنا الملك الفتى . . !

للأستاذ محمد محمود زيتون

لبس سليمان بن عبد الملك يوما حلة وعمامة ، ونظر فى المرآة ، فأعجبته نفسه ، ونفخ الشيطان فى منخريه ، فقال :

أنا الملك الفتى

وكان إلى جواره ، إحدى جواريه ، فانطلق لسانها يقول :

أنت نعم المتاع ، لو كنت تبقى
غير أن لا بقاء للانسان
ليس فيما علمته فيك عيب
كان فى الناس ، غير أنك فان

ولم ينقض أسبوع حتى مات الخليفة الشاب الذى لم يعرف التاريخ أشد منه حبا للطعام والشراب والنساء ، فى حقبة لم تتجاوز ثلاث سنوات ، احتفلت بالترف والبذخ ، وطفحت بالزيغ والفساد ، والتحزب والتعصب ، والنكال بالأخيار ، ومداراة الأشرار

قيل إن أباه — عبد الملك بن مروان — جاءه نبأ مصير الخلافة إليه . وهو جالس يقرأ فى المصحف ، فأطبقه وقال : « هذا آخر العهد بك » . فما لبث هذا التقى النقى أن استهوته الدنيا بزخرفها ، فتغير حاله ، وأطلق العنان لفرعون بنى أمية — الحجاج بن يوسف الثقفى — الذى ولغ فى الدماء والأشلاء . وحسب التاريخ مؤاخذة لعبد الملك أن كان الحجاج سيئة من سيئاته

ورث سليمان عن أبيه دولة وصولة ، وجمع مثله بين النقيضين ، فإنه غمط فضل العاملين ، ولم يستشعر جهود القادة الفاتحين الذين وطدوا له دعائم الخلافة ، ومكنوا له فى الملك العريض ، فقلب لهم ظهر المجن ، ولا سيما من كان فيهم قريبا للحجاج أو مقربا منه ، وذلك لما كان بينهما من عداوة قديمة . فقد كان الحجاج يهمل أوامره ويتكبر عليه أيام كان سليمان ولى عهد أخيه الوليد ، ومن هنا امتد بغضه للحجاج حتى عصف بأشهر القادة

واتبع سليمان خطة الإيقاع بين الولاة والأمراء ، فدبت عقارب الفتنة بينهم ، وتسللت أفاعى الفساد إلى الحكومة ، وبئست الأمة من الإصلاح ، وقبع كل صالح فى عقر داره يلتمس النجاة

ولم يدخر وزيره الصالح وابن عمه عمر بن عبد العزيز وسعا فى بذل النصيحة له ، ولكن جذور الشر كانت قد بلغت الأعماق فى كل مرفق من مرافق الدولة . ولم يكن عجبا — آخر الأمر — أن تنهار دولة الأمويين بعد اثنين وثمانين عاما ، حملت خلالها جراثيم الانحلال والتدهور ، فقد سئل حكيم : ما سبب زوال ملك بنى أمية مع كثرة العدد والعدد ، والأموال والموالى ؟ فأجاب ، وأحسن الجواب : لأنهم أبعدوا أصدقاءهم ثقة بهم ، وقربوا أعداءهم جهلا منهم ، فصار الصديق بالإبعاد عدوا ، ولم يصر العدو بالتقريب صديقا

وفى ذات يوم دخل الملك الفتى . مدينة رسول الله فسأل : هل بالمدينة أحد أدرك أحدا من أصحاب رسول الله ؟ فقيل له : أبو حازم ، فأرسل فى طلبه ، فلما دخل عليه سأله : يا أبا حازم ، ما لنا نكره الموت ؟ فأجابه : لأنكم أخربتم آخرتكم ، وعمرتم دنياكم ، فكرهتم أن تنقلوا من عمران إلى خراب ... وأغضى الملك الفتى ، ثم أخذ يستزيد أبا حازم : وكيف القدوم على الله ؟. فقال : أما المحسن فكالغائب يقدم على أهله ، وأما المسئ فكالآبق يقدم على مولاه

وبكى أبو أيوب ، ثم قال : يا ليت شعرى ، ما لنا عند الله ؟.. فقال له أبو حازم :

أعرض عملك على كتاب الله . فسأله : فى أى مكان أجده ؟ قال : فى قوله تعالى « إن الأبرار لفى نعيم ، وإن الفجار لفى جحيم » . فقال سليمان : فأين رحمة الله ؟ قال أبو حازم : قريب من المحسنين . فقال : فأى عباد الله أكرم ؟ . فأجاب : أولو المروءة

وكان وزيره الأمين شديد الحرص على قول الحق ، لا تأخذه فيه لومة لائم . اضطجعه يوما فى الحج ، فراع الخليفة

عدد الرمل والحصى من رعاياه ، فتلفت إلى وزيره وقال : ألا ترى هذا الخلق الذى لا يحصى عددهم إلا الله ، ولا يسع رزقهم غيره ؟ قال : يا أمير المؤمنين ، هؤلاء رعيتك اليوم ، وهم خصماؤك غدا عند الله . فبكى سليمان أشد البكاء . وقال : بالله أستعين

وفى الواقع أن لحظات الندم التى كانت تطرق ضمير الملك الفتى ، لم تكن غير فواصل عنكبوتية بين طغيان موصول ، واستبداد متأصل ، فقد أشرف يوما على الدنيا ، فأعجبه ما صار إليه من الملك الذى نسجته دماء الشهداء ، ودموع الفقراء ، فنسى هذا كله أو تناساه ، وتلفت إلى الوزير المؤمن وقال له : ياعمر ، كيف ترى ما نحن فيه ؟ فقال : يا أمير المؤمنين ، هذا سرور لولا أنه غرور ، ونعيم لولا أنه عديم ، وملك لولا أنه هلك ، وفرح لو لم يعقبه ترح ، ولذات لو لم تقترن بآفات ، وكرامة لو صحبتها سلامة

وبكى سليمان ما شاء له أن يبكى ، ولم يكد يضيق مما فيه حتى دخل عليه أعرابى يقول : يا أمير المؤمنين ، إنى أكلمك بكلام فاحتمله ، فإن وراءه إن قبلته ما تحب . فقال : هاته يا أعرابى . فقال الأعرابى :

إنى أطلق لسانى بما خرست عنه الألسن ، تأدية لحق الله ، إنه قد اكتنفك رجال قد أساءوا الاختيار لأنفسهم ، وابتاعوا دنياك بدينهم ورضاك بسخط ربهم ، وخافوك فى الله ، ولم يخافوا الله فيك ، فهم حرب للآخرة ، وسلم للدنيا ، فلا تأمنهم على ما استخلفك الله عليه ، فإنهم لن يبالوا بالأمانة ، وأنت مسئول عما اجترموا ، فلا تصلح دنياهم بفساد آخرتك ، فإن أعظم الناس عند الله عيبا من باع آخرته بدنيا غيره

عندئذ صعر الملك الفتى خده للأعرابى الذى قدم ينصحه بتطهير حاشية السوء ، وبطانة الفساد ، واستكثر أن يكون ذلك التوجيه منبعثا من أعرابى ، فقال : أنت ، ما أنت بأعرابى ، فقد سللت لسانك علينا كما تسل سيفك . فأجابه فى جرأة : أجل يا أمير المؤمنين ، لك لا عليك

ويشاء مالك الملك أن تنقشع هذه الغمة الغليظة التى جثمت على صدر الخلافة ، فأحس الملك الفتى بقرب منيته ، وآن له أن يستخلف بعد أن عهد إلى ابنه أيوب بالخلافة لولا أنه مات فى حياة أبيه ، ولم يبق لسليمان إلا صبية صغار ، أمر بأن يعرضوا عليه فى أردية الخلافة ، فإذابهم لصغر أسنانهم لا يحتملون ما لبسوا ، وأخذوا يسحبونها سحبا ، ويتعثرون فيها ، فنظر إليهم وهو يقول فى حسرة :

إن بنى صبية صغار قد أفلح من كان له كبار

فقال عمر : يا أمير المؤمنين ، يقول الله تعالى « قد أفلح من تزكى وذكر اسم ربه فصلى » . فلم يلتفت إليه الملك المريض ، وأمر بأن يعرض عليه أولاده مرة أخرى عليهم السيوف ذات الحمائل ، فعرضوا . فإذا بهم يتكفأون بها ، ويجرونها ، ولا يطيقون حملها ، والسير بها ، فنظر إليهم ، والدمع يغالبه ، وهو يقول :

إن بنى صبية صيفيون أفلح من كان له ربعيون

وأعاد عليه عمر ما قال آنفا ، فأغمض جفنيه قليلا ، وكأنه اقتنع بأن الخلافة زائلة عنه وعن أعقابه ، فأشير عليه بأن يعقد لابن عمه ووزيره عمر بن عبد العزيز ، فأدار الأمر فى رأسه حتى لم يعد مناص من القبول

واشتد به الوجع فكتب له العهد بخطه ، ولم يطلع عليه أحدا غير رجاء بن حيوة الذى بالغ فى التكتم حتى أنه لم يذكر من ذلك لأحد شيئا إلا بعد موت الملك الفتى ، فنى آخر صحوة له قال : لأعقدن عقدا لا يكون للشيطان فيه نصيب

وحضره إذ ذاك عمر ، ففهم بفطنته أن الخلافة قد أتته تجرر أثقالها ، فأوجس خيفة ، وأفضى بذلك إلى رجاء ، فتظاهر رجاء بالإنكار قائلا على سبيل التمويه : أتظن بنى عبد الملك يدخلونك فى أمورهم ؟ !

فاطمأن عمر أو هكذا حاول أن يطمئن ، فلما أعلن النبأ ، وبويع بالخلافة ، طلب إلى أحد خلصائه أن يعظه فقال :

يا أمير المؤمنين ، أبونا آدم ، أخرج من الجنة بخطيئة واحدة

محمد محمود زيتونه